

الفصل الخامس

في ذكر ابتداء الخلق

قال انّ الموحدين في معنى إيجاد الخلق مختلفون لأنّ الله خلق الخلق لا لاجتلاب منفعة ولا لدفع مضرة وكلّ فاعل من غير نفع ولا ضرر فسفيه غير حكيم قال المسلمون هذا إذا كان الفاعل يلحقه المنافع والمضارّ فأما إذا كان غنيّاً من احتراز منفعة ممتنعاً من لحوق ضرر فقير سفيه ولا عايب وقد قامت الدلالة على أنّ الباري كذلك حكيم غير سفيه ومحال وجود العبث من الحكيم فلا يخلو خلقه من الحكمة وان خفى علينا وجهه لعلمنا بأنّ الحكيم لا يفعل ما هو غير حكمة واختلف آراء الناس في ما لاح لهم من الحكمة في خلقه وإن كان لا يجوز القطع على شئ منه لظنه معظم علمه عنهم فقال قوم خلق الله الخلق لجوده ولرحمته إذ ألجواد بإفاضة

الجود على المجود عليه يظهر جوده والقادر بإظهار المتصور يظهر قدرته وقال قوم خلقهم لينفعهم وينفع بهم يعنون لتعريف المتكلمون بالخلق غير المكلف وقال قوم ليأمرهم وينهاهم وقال قوم خلقهم لاستدعاء الشكر والثناء وقيل ليلم علمه أنه يخلقهم وقال قوم لا نقول شيئاً من ذلك خلقهم لما شاء ولا علم لنا بمشيئته هذا قول من اقرّ بمحدث العالم وأن له محدثاً سابقاً له فأمّا من انكر ذلك فإنه احتجّ بالقدم والاهمال بأنه لو كان للعالم صانع او مدبّر ناظر لما كان فيه تفاوت خلق ولا تعادى سباع ولا شمول بوار ولا وقوع فساد ولا اعتراض أسقام وأوجاع ولا هَرَم ولا موت ولا حزن ولا فاقة وأية حكمة فى انشاء صورة حيوانية او نامية ثمّ فى إفنائها ولما استوى حال المعاند والمجيب ولما فضل العالم الجاهل بالجاه والمال والمنزلة [f° 23 r°] وهل لا^٢ أخبر الخلق ان كان له خالق على التناسف والتواصل ولمْ خُلّي بينهم وبين التعادى والتظام والتباغى والتهاج وهذا كله مضحّل متلاشٍ بشهادة آثار الخلق

^١ Ms. لتعبر.

^٢ Ms. هلاّ ; corr. marg. هل.

على تفاوته واختلافه في الظاهر من الاجتماع والافتراق
والحركة والسكون والاعراض والمقارنة له بمعرفة كمال
القدرة ووجوب العبرة في خلق الأضداد وللكاره وإعطاء
الخلق القوة والقدرة والاختيار ليستحقوا بأعمالهم أشرف الثواب
وليرتدعوا بالاعتبار عن الظلم والفساد ولو كانوا مجبورين كما
يزعمون أو مجبولين على فعل واحد دون ضده لكانوا جمادًا مواتًا
ولو كانوا على طبع واحد لما عرفوا بجواسمهم ولا وجدوا بقولهم
إلا الشئ الواحد الذى يلايم طبعهم فلم يصلح حينئذ تكليف
ولا وقع منهم تمييز وترك إلحادهم على هذه الصورة انفع لهم
وابلغ في الحكمة ولا يفعل الله إلا الأصلح الأحكم وأما
فضل الجاهل العالم بالمال والجاه فالعلم أفضل من المال لأنه
السعادة اللازمة والمال من السعادة المفارقة فلو أنصف هذا
الزاعم في القضية لفضل الجاهل بالمال على العالم لفضل العالم
على الجاهل بأضعاف عله لتساوى حالتهما وقد سئل جعفر بن
محمد الصادق رضى الله عنه عن هذه القضية قال ليعلم العاقل
أن ليس إليه من أمره شئ وإى لعمري هو من أدل دليل
على مدبر قدير قاهر وهولاء المعطلة اقل الناس عددًا

واوهمهم عُدَّةً وافيلهم رأياً وأوهاهم عزماً وانقصهم حجةً
وأخسهم دعوىً وأدناهم منزلةً وأغربهم ذهنًا لا يظهر واحد
في أمةٍ وجيلٍ إلَّا في الدهر والحين لأنَّه رأى مشرذل
وعقيدةً مهجورةً وعزمٍ مدحولٍ لا يبدو إلَّا من قَدَمٍ جاهلٍ
أو معاندٍ وما أراه انتشر في أمةٍ من الأمم وزَمَنٍ من الأزمنة
انتشاره في زماننا هذا وأمتنا هذه لتسُرَّ أهله بالاسلام وتحلِّيهم
تحلية شرائعهم ودخولهم في غمار أهله واحتال من احتال لهم
بلطيف التمويه في تسليم الأصول الظاهرة والمصير به إلى
التأويلات الباطنة فهم يُرَقِّقون عن صَبُوحٍ ويحتسون في
إرتقاءٍ وذلك الذي حقن دماءهم وغمد سيف الحق عنهم
نابغ في قديم الدهر وحديثه وأبداً صفحته إلَّا عوجل بالاستئصال
واحشت منه الأوصال واستنجر العدة فيهم سنة الله في الدين
خآو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً زعموا أنَّ هذه الدنيا
قَدِيمَةٌ لم تزل^١ على ما هي عليه ولا تزال^٢ كذلك من صيغة
بعد شترةٍ وشتوةٍ بعد صيفةٍ وليل بعد نهار ونهار بعد ليل ونظفة

^١ يزَل. Ms.

^٢ يزال. Ms.

من إنسان وإنسان من نطفة ووالد من ولد وولد من والد
وبيض من طير وطير من بيض وكذلك جميع الأشياء الحساسة
والنامية بعضها من بعض بلاصانع ولا مدبر لا أول لها ولا آخر
فإن هذه دعوى جائزة ومقالة باطلة ولو كان هذا المدعى
لم يزل مع أزلية العالم بزعمه لما سأغت له دعواه إن لم يُقَمْ
له دليل من غيره على أزليته فكيف وليس هو ممن هو لم
يزل ولا هو ممن لا يزال وإن اعتمد فيه خبر من كان قبله وإن
من أخبره لهو في حاله وحدوثه لم يشاهد من ذلك إلا ما
شاهد من كان قبله مع معارضة الخصم له [٢٣ ٧] في الكون
والحدوث لأن الدعاوى تصح بالحجج لا بالصفات وإن زعم أنه
قاس ما مضى منه بما هو مستقبل فيما بعد وأنه غير منقضى
فهذا القضاء أجود من الأول وأضعف مدة بل هو نفس دعواه
التي خولف فيها والمعارضة قائمة فإن زعم الحال والوقت
الندي هو فيه فإن هذا رأى من قصر علمه وسخفت معرفته
وأوجب أن يكون هو بنفسه لم يزل على ما هو عليه في الحال
والوقت لم يكن قط نطفة ولا عاقمة ولا مضغة ولا جنيناً
ولا رضيعاً ولا يتغير فيما بعد فيكتهل ويشيب ويهرم وتجري عليه

الحوادث وثبتت له في الأحوال ومماينة هذه يضطره إلى
 الإقرار ويبين عسه وجه الغناد وإن زعم أن حكمه في نفسه
 خلاف حكم العالم قيل ولم زعمت ذلك وهل أنت إلا جزء
 من العالم بل قد شبهت في جميع معانيه فسميت العالم الأصغر
 وكذلك كل ما يعاين من الأشخاص والأنواع العلوية
 والسفلية من الحيوان والنبات ألا ترى أنك لو عمدت إلى
 كل جزء من أجزاء العالم فاخصصته باسم لحصل العالم
 لا شيء كما أنك لو فرقت الجوارح والأعضاء لحصل الإنسان
 لا شيء فهذا يدل على أن الكل اجتماع الجزء لا غير فإن
 قال لا يقوم في الوهم ولا يتصور في النفس حدوث هذا
 العالم ولا فناؤه وانقضاؤه عورض بأنه لا يقوم في الوهم
 ولا يتصور في النفس قدم العالم ولا بقاؤه مع أن القضاء عليه
 بالحدث والانقضاء أقرب إلى الأوهام وأشد ارتباطًا لنفوس
 لقيام الدلائل الواضحة والبراهين الشافية فإن قال كيف يمكن
 اعتقاد حدوث هذا العالم لا من شيء ولا في زمان ولا مكان
 فإن هذا اشتطاط في المطالبة وجور في القضية لأنه تكليف
 تمثيل ما لا مثل له وإحساس شيء غير محسوس وليس نعلم

كالدنيا دُنياً غيرها فنشبهه هذه بهذه وانما نحكم بحدوثها لشهادة
 أثر الحدوث بها والعامى الذى لا رأى له ولا نظر عنده
 يطلب البدلائل الظاهرة على الاشياء الخفية وذلك مُحال
 بمنزلة مَنْ يجب أن يرى ما لا يرى وأن يسمع ما لا يُسمع
 او يسمع ما يُرى ويرى ما هو مسموع ومن أنصف نفسه أنزل
 المعلومات منازلها واكتفى من الموهوم بالوهم ومن المحسوس
 بالحس ومن المدلول عليه بالدلالة وقد لعمري لا يتصور في
 الوهم إحداث هذه الجواهر والأعراض لا من غير سابق ثم
 لا يتصور وجود حدث لا من مُحدث فإذا تكافأت
 الصورتان لزم المصير إلى أشعيها دلالةً وأدناها الى الحق درجةً
 فإنّ الدلائل شاهدة بآثار الحدث والقدم موهوم وقضية
 الدلالة عليه من قضية الوهم والدليل على أن العالم حادث
 غير قديم كما يزعمون وأنه لا أول له ولا حركة إلا وقبلها
 حادثة لو كان كذلك لما جاز وجود ما هو حاضر في الحال
 من حركة أو ليل أو نهار أو شخص ما لأنّ ما لا نهاية له
 في وجوده وعدمه فحال أن يوصف بأنه قد تنهى وانقضى
 حدوثه وفُرج منه ولأنّ ما لا أول له فغير جائز وجود ثانيه

ولا وجود ثالثٍ ما لا ثاني له ولا وجود رابعٍ ما لا ثالث له
على هذا القياس كما أن ما لا غاية له ولا نهاية في
المستقبل [٢٤٢] محال أن يُوصَفَ بأنه ينقضي أو ينقطع يوماً
كذلك من زعم من الحوادث لم يزل يحدثُ بلا أول فهذا
الحادث في الحال والوقت المشاهد لا يخلو من وجود ثلاثة، إما
أن يكون هو الأول أو بعد الأول ولا أول ولا بعد الأول فإن
كان هو الأول وإن كان بعد الأول فقد ثبت الأول وإن كان
لا أول ولا بعد الأول فهذا فساد ظاهرة فكأنه قال شيء
لا شيء ولو جاز وجود ما لا أول له لجاز وجود العشرات
من غير تقدّم الآحاد ووجود المئين من غير تقدّم العشرات
ووجود الألوف من غير تقدّم المئين^١ لأنّ بالأحد يتم الاثنان
وبالاثنين يتم الثلاثة ألا ترى أن قائلًا لو قال لا تُنبِت الأرض
حتى تمطر السماء ولا تمطر السماء حتى تتغيم ولا تتغيم حتى يثور
البُخار ولا يثور البخار حتى تهب الرياح ولا تهب الرياح
حتى يحرّكها الفلك ولا يحرّكها الفلك حتى تكون كذا ويمدّ

^١ مله. Ms.

^٢ المائين. Ms.

في هذا الاشتراط شيئاً قبل شيء أبداً الى غير نهايه ولا غاية
لم يبحز وجود نبت ولا مطر ولا غيم ولا ربح لأنّه مُعلّق
بشرط ما قبله غير جائز وجوده لأنّه غير متناهٍ وكذلك
من زعم أنّه لم يكن حركة إلاّ وقبلها حركة ولا انسان إلاّ وقبله
انسان ولا نبت إلاّ وقبله نبت الى ما لا غاية ولا نهاية
فحال وجود هذا الانسان والنبت لأنّ وجوده كان مُعلّقاً
بشرائط لا أولها وما لا غاية له لا يُوجد ولا يُعلم ولا يُوهم
وكذلك لو قال قائل لا أدخل هذه الدار حتى يدخلها زيد ولا
يدخل زيد حتى يدخل عمرو ولا يدخلها عمرو حتى يدخلها فلان
ثمّ كذلك الى غير غاية لم يبحز دخول زيد ولا غيره أبداً
وكذلك لو قال لا آكل تفاحاً حتى آكل قلبها تفاحة
لم يصحّ له اكل تفاحة ابداً لأنّه كلّما ضرب يده الى
تفاحة يأكلها منعه شرط اكل تفاحة قلبها، ومن الدليل
على حدث العالم أو أنّ له أوّلاً انا لو توهمنا عند كلّ حركة
مضت من حركات الجسم حدوث حديث او ظهور شخص لكان
ذلك اجساماً حاضرة يحضرها العدّد ويبقى عليها الحساب
وكذلك لو توهمنا هذا العالم حياً عالمياً لجاز أن يُعدّ حركاته

وسكناته فيكون ذلك عددًا قائمًا معروفًا لمبلغ وما له
 مبلغ وأتى الحسابُ عليه فمتناهٍ وكلّ متناهٍ له أول وإن لم يتناهَ
 ومن الدليل على حدث العالم وأنّ له أولًا أن ما مضى من
 حركات الفلك لا يخلو من أن يكون مثل سكناتها متساويةً
 أو أكثر منها أو أقلّ فإن كانت مثلها فالمثل كالنصف وما
 له نصف فمتناهٍ والأكثر والأقلّ تدلّ الكثرة على تضاعف
 أجزاء الأكثر على الأقلّ فاذا ثبت تقدّم إحدى الحركات
 على الأخرى وما له تقدّم فمتناهٍ وله أول وهذا من الحجج
 الواضحة التي يفهمها كلّ سامع وللموحدين في هذا الباب من
 دقائق النظر بما ألهمهم الله من توفيقه ما لا يظهر عليها إلا
 اللقن القطن ولها موضعها من كتابه فإن قيل أليس الحوادث
 عندهم في المستقبل لا تزال إلى الآخر وإن كان لها أول يريدون
 قول أهل التوحيد ببقاء الآخرة على الأبد فما أنكرتم أن ما
 مضى من الحوادث لا أول لها وإن كان لها آخر قيل إنّا
 لا نزعم أنّ ما له أول لا يجوز أن يكون له آخر وإن
 الحوادث غير متناهية [٢١٧] ولكنّا نقول أنّ الحوادث لا يزال
 يحدث منها حادثٌ بعد حادثٍ لا إلى غاية ولا يخرج كلّها إلى

الوجود حتى يرى موجودًا لم يبقَ منه شيء لم يوجد وليس أول
الشيء بموقوف على صحة وقوع آخره كما أن آخره موقوف على
صحة وقوع أوله لأنه يستحيل وقوع آخر لا أول له ولا
يستحيل وقوع آخر بعد آخر أبدًا كما يستحيل وقوع فعل لا من
فاعل متقدم ثم لا يجب وجود الفاعل بعد فعله باقياً أبدًا أو
كما أن الأعداد مفتقرة أبدًا إلى أول تنشئ منه وتبتدئ ثم
لم يجب وجود تنهايتها لتناهي أولها ومن الفرق بين المستقبل
والمستند أنه يجوز وجود ما لا يزال يتحرك ولا يجوز وجود
ما لم يزل يتحرك كما أنه يجوز وجود من لا يزال يعتذر من
ذنب ولا يجوز وجود من لم يزل معتذرًا لأن الاعتذارات
لا بُدَّ لها من أول وقد يجوز أن يكون لا آخر لها كذلك
الأفعال لا بُدَّ أن لها أولًا ولا يجب أن يكون لها آخر ومن
ها هنا التزم بعض الموحدين بأن الحوادث لها آخر آخر العلة
الحدث وإن زعم أن هذا العالم وما فيه من فحل الطبايع وما
أوجبه ذواتها فالطبايع مركبة من البسائط والتركيب عرض
وهو دلالة الحدث فالطبايع إذا مُحدثة ثم هي جماد وموات
كالجبر والشجر ثم هي مستخرة مقهورة بدلالة أن من شأنها

التنافر والتضاد فلما رأيناها متواطئة متوافقة علمنا أنه
 بقهر قاهر وضبط ضابط ثم هي غير عالمة ولا مميزة وإذا كان
 هذا هكذا استحال وجود هذه الصنعة المحركة المتقنة
 العجيبة البديعة من مُسَخَّر غير عالم وليس نُكْر فعل الطبايع
 وتأثيراتها في المطبوعات من الحر والبرد في الفصول والأرباع
 لأن الله تعالى وضعها على ذلك وركب فيها تلك القوة
 وسخرها لما أراد أن يصرفها عليه وجعلها سبباً لتلك المُسَبَّات
 ومتى شاء سلبها تلك القوة وأبطل فعالها كما جعل الطعام
 مُشْبَعاً والماء مَرُويّاً وكثير من الناس يأتون القول بما أطلقناه
 تحزّراً لمذهبهم وإن يصحّ فعل من حىّ قادر فأما الاختيار
 والتدبير فغير جائز إلا من قادر حكيم وكذلك على من
 يزعم أن هذا العالم وما فيه من فعل الفلك والنجوم وغيرها
 فإن قيل إذا لم تَرَوْا حياً قادراً فعل إنساناً وصورة وركب
 فيه العقل والقوة والسمع والبصر ثم قضيت بأن في الغائب حياً
 قادراً يفعل ذلك ما انكركم أن يكون الطبايع تصوّر مثل
 هذا الإنسان وإن لم تروا مثل هذا في الشاهد قيل وما
 سوا لائنّا وإن لم نشاهد حياً قادراً فعل إنساناً فقد شاهدنا

حيّاً قادراً فعل شيئاً وأبدعه فدلنا انه لا يجوز فعل في الغائب الآ من حيّ وليست الطبائع بجمّة ولا قادرة فإن قيل أليس النار تُحرق والماء يَطرَب قيل فقد يقولون فلان يحرق ويبرد ويضيفون الفعل الى المختار الحيّ والموات المضطرّ ولو كانت الطبائع بذاتها لما جاز عليها الاتفاق مع تضادّها فإن قيل شئٌ تعلمونه خالياً من الطبائع أو غير متولّد منها قيل الطبائع نفسها متولّدة منها وأكثر القدماء على أنّ الأفلاك ليست من جنس الطبائع وهل يصحّ القول بأنّ الحركة والسكون والصوت والعجز والقدرة [٢٥ ٢٥] والعلم والجهل والحبّ والبغض والألم واللذة والكراهة والإرادة وغير ذلك من الأضداد والأشكال من الطبائع أو أنّها ليست بشئٍ لخروجها من أنواع الطبائع وأما احتجاجهم بالاستحالة فذلك محال الا محيلٌ لانه لو جاز أن يستحيل الشئ بنفسه لجاز ان يتلاشى بنفسه ولو جاز ان يتلاشى بنفسه لجاز أن يتركّب ويخرج إلى الوجود من العدم وهو عدم فلما لم يجوز هذا لم يجوز ذاك وبالله التوفيق ، ومن الدليل على حدث العالم أنّه لا يخلو

من أحد الامرئين إما أن قد كان وإما أن لم يكن فكان
 فإن كان قد كان فهذه الحوادث المقارنة له شهادة بأنه
 ما كان فدلّ أنه لم يكن فكان ثم لم يخلُ هذا من أحد
 الامرئين إما أنه كان بنفسه وإما أنه كان بمكوّن غيره فإن
 كان بنفسه فمحال أن يكون العدم وجودًا لعجز الكائن عن
 تكوين مثله فكيف يقدر على تكوين ذاته وهي معدومٌ بقي
 الوجه الآخر وهو أنه كونه مُكوّنٌ ومن الدليل على
 حدث العالم أنه لا يخلو أن يكون قديمًا أو حادثًا أو قديمًا
 حادثًا أو لا قديمًا ولا حادثًا فاستحال القول بأنه لا قديم
 ولا حادث لمشاهدتنا إياه فاستحال أن يكون قديمًا حادثًا
 لاستحالة اجتماع الضدين بقي القول بالقديم والحادث والدعوى
 يتساوى فيه لأنه ليس قول من زعم أن العلم كان أولى من
 قول من زعم بأنه لم يكن ولا جواب من قال لِمَ لم يكن
 بأسعد من قول من قال لِمَ كان فنظرناه فإذا دلائل
 الحادث يشهد بما لا يشهد دلائل القدم ومتى أراد المُحدث أن
 يعارضك في قولك بالقديم فطالبه بصفات القديم فإن
 أعطاك فقد أقرّ بالمعنى وبقي الخلاف في التسمية وهذه مناظرة

جرت بين الموحّد والملحد من أوضح المسائل وأنفعها لا بُدَّ لكلّ
مُسلم من تحفظها، إن سأل سائل فقال ما الدليل على حدث
العالم قيل الدليل على حدثه أنّه جواهر وأعراض والجواهر
لا تخلو من ان تكون مجتمعة أو متفرقة أو ساكنة أو
متحركة إلّا في حال واحدة ولن يجتمع المجتمع بالاجتماع
ولا يفترق المفترق بالافتراق وكذلك المتحرك والساكن
والاجتماع والافتراق والحركة محدثة وهو إذا كان
كذلك ولم تخلُ الجواهر منها فهي محدثة لأنّ ما لم يسبق
للحوادث ولم يتقدمها فحادث مثلها مثال ذلك أنّ فلاناً لو
قال أنّ عمرّوا لم يوجد قطّ في هذه الدار إلّا وزيد معه ثم
قال وإنّما وجد فيها زيد أمس فوجب أنّ عمرّوا إنّما أوجد
فيها أمس فإن قيل ليس قد وجدتم الباقي الذي ليس
بمنتقض لا يخلو ممّا لا يبقى وينقضي ولا يوجد بعده متعرياً
منه فما أنكرتم أنّ القديم الذي لم يزل لا يخلو من حادث
ولا يوجد سابقاً له متعرياً منه قيل المعارضة فاسدة من قبل
أنّه ليس ممّا لا يبقى وينقضي عروضاً للحدث أو المحدث وإنّما
عروض ذلك لم يبقَ وانقضى وذلك أنّ قولك لا يبقى

وينقضى الحالة على وقت يأتى به يستحق الحكم بأنّه
 مُنقضى غير باقٍ فلم يكن منكراً لان يقارن الباقي حتّى لا يخلو
 منه اذ لم يُسبق الوصف المضادّ لوصفه وقولك قد حدث حكم
 قد وجب له فى وقته لا ينتظر وجوبه فى وقت فاستحال
 أن يقارن القديم حتّى لا يكون [F^o 25 v^o] القديم سابقاً له فإن
 قيل فواجبوا أن يكون الباقي متغرباً من لم يبق وانقضى كما
 أوجبتم أن يكون القديم سابقاً للمحدثات موجوداً قبلها قيل
 ذلك يفعل وهو الواجب كما أنّه سابق للحوادث فكذلك
 يجب أن يكون باقياً متأخراً عنها متى ما لم يكن كذلك
 لم يكن باقياً كما أنّه لو لم يسبقها لم يكن قديماً فإن قال اذا
 زعمتم أنّ المقارن للحوادث حوادث فما ينكرون أن يكون
 المقارن للحوادث أمس حادثاً أمس، قيل لأننا نقول أنّ الذى
 يقارن للحوادث حادث بالإطلاق ولكن نقول ما لم يسبقها
 فحادث مثلها والجسم فإن قارن الحوادث أمس كان موجوداً
 قبله فلذلك لم يجب أن يكون حادثاً معه وهذه يؤكّد
 ما قلنا له كما وجب ان يكون ما لم يسبق الحادث أمس
 حادثاً أمس فكذلك يجب أن يكون ما لم يسبق الحوادث

بإطلاق حادثاً بالإطلاق فإن قيل أليس لم نشاهد والاجسام
مقارنة لحوادث إلا وقد كانت موجودة قبلها مقارنة لحوادث
غيرها فهلا زعمتم أن ذلك سبيلها وأنها لم تنزل كذلك قبل
هذا غير واجب لأننا وإن كنّا حكمنا بأن الأجسام التي
شاهدناها كانت متقدمة للحوادث المقارنة لها مقارنة لغيرها
فلم نحكم بذلك من طريق الوجوب ولا لأنّ الجسم إنما كان
جسماً موجوداً لأنّه لا بُدّ من أن يكون متقدماً للحوادث
المقارنة لها مقارنة لغيره لأنّ هذا حدّ الجسم وحقيقته بل
إنما حكمنا بذلك لأننا لم نشاهد جسماً حدث في وقت
مشاهدتنا له ولأنّه صحّ عندنا بالخبر والدليل أن هذه
الأجسام التي شاهدناها قد كانت موجودة قبل مشاهدتنا لها
وصحّ أن الجسم لا يخلو من حادث ولو أننا شاهدنا جسماً في
وقت لم نشاهده قبله ثمّ لم يُقَمْ لنا دليل على أنّه كان
موجوداً قبل تلك الحال ولا خبر صادق بذلك لما حكمنا
بأنّه قد كان موجوداً قبل الحوادث المقارنة له مقارنة
لغيرها بل كنّا نمخبر^٢ ذلك ونمخبر^٣ أن لا يكون سبق ما

١ Ms. احد.

٢ Ms. مخبر.

٣ Ms. مخبر.

هو موجود معه منها . فإن قيل زلّم جوزتم هذا وهلا قضيت
على كل جسم غاب أو حضر وردّ فيه خبراً زلّم يردّ قام على
تقدمه دليل أو لم يشأ بمثل^١ ما شاهدتم عليه هذه الأجسام
وقضيت بها عليها من تقدمها الحوادث الموجودة منها ومقارنتها^٢
لغيرها وإلا فكيف تزعمون^٣ انكم تقضون بالشاهد على الغائب
قل ليس القضايا بالشاهد على الغائب على ما ظننتموه لأنّه
ليس يجب اذا شاهدنا جسماً على صفة من الصفات أن تقضى
كلّ جسم غاب عنّا كذلك انما يجب اذا شاهدناه على صفة
ما أن يُنظر هل هو عليها من جهة الوجوب الذى هو حده
وحقيقته أم لا فإن كان كذلك قضينا على كلّ جسم
غاب عنّا بحكمه وإلا فلا كما قلتم أن لا جسم فى الشاهد إلا
مركباً من الطبائع الأربع ولا مركباً من الطبائع إلا جسماً ثم قلتم
بأن الافلاك من طبيعة خامسة ولم يشاهدوا ذلك فكذلك
إذا لم نر إنساناً إلا أبيض لم يجب القضاء بأن كلّ إنسان

^١ مثل . Ms.

^٢ مقارنتها . Ms.

^٣ يزعمون . Ms.

أبيض أو لم ترَ دُمَانًا إِلَّا حُلْوًا لم يلزم أن لا يكون دُمَانٌ إِلَّا حُلْوٌ وكذلك إذا لم ترَ جسمًا مقارنًا لحادث إِلَّا وقد كان عندنا متقدمًا له مقارنًا لحادث غيره فلم يكن جسمًا لآثمه كذلك ولا ذلك حده بل حده أن يكون طويلًا عريضًا عميقًا فلما لم يكن جسمًا لآثمه يسبق الحوادث فيوجد مع غيرها لم يجب أن يكون ذلك [٢٦ ٢٥] حال كلِّ جسم في كلِّ وقت وهذا أيضًا جواب قولهم إذا لم يروا أرضًا إِلَّا مِن ورائها أرض ولا بيضة إِلَّا من دجاجة ولا دجاجة إِلَّا من بيضة فكيف قضيتُم بمخلاف ما شاهدتم فيقال ليس حدّ البيضة أن تكون من الدجاجة ولا حدّ الدجاجة أن تكون من البيضة وإنما الدلائل قامت على حدوثها فإن قال ولمَ زعمتم أن الجواهر لا تخلو من أن تكون مجتمعة أو متفرقة قيل هذا من أوائل العلوم التي تُعرف بالبديهة ولا يعترض عليها بالشبه فإن قال ما البديل على المجتمع اجتماعًا به كان مجتمعًا وللمفترق افتراقًا دون أن يكون مفترقًا ومجتمعًا بنفسه قيل لو كان مجتمعًا بنفسه لما جاز وجوده مفترقًا ما دام نفسه موجودة وكذلك المفترق فدلّ أن المجتمع مجتمع باجتماع وكذلك

الافتراق ، فإن قيل وما الدليل على الاجتماع والافتراق
مُحدَثان قيل الدليل على ذلك أننا نقصد الجسم المجتمع مفترقة
فيوجد فيه افتراق فلا يخلو ذلك الافتراق من أن كان
موجوداً فيه قبل ذلك أو لم يكن فحدث فإن كان موجوداً
فيه فقد كان مجتمعاً مفترقاً وهذا محال فثبت أنه حدث عند
الافتراق وبطل أن يكون الاجتماع والافتراق كامنين في
الجسم فإن قال ما انكرتم أن يكون الاجتماعات والافتراقات
لا نهاية لها وأنه لا اجتماع إلا وقبلة اجتماع ولا افتراق إلا
وقبلة افتراق قيل هذا فاسد لأنه لو كان كذلك لما جاز
أن يوجد واحدٌ منهما كما أن قاصداً لو قصد إلى جماعة فقال
لا يدخلن هذا البيت أحدٌ منكم حتى يدخله قبله آخر ما جاز
أن يوجد واحدٌ منهما في ذلك البيت ولو وجد كان في ذلك
انتقاض الشرط فإن قيل فما تنكرون أن يكون الاجتماع
والافتراق خمسين قيل لو كانا كذلك لم يخلُ من أن يكونا
مُجتمعين أو مفترقين باجتماع وافتراق هما أو غيرهما فإن
كانا مجتمعين باجتماع هو هما استحالة وجود الافتراق فيهما ما
دامت أعيانهما قائمة وإن كانا مجتمعين باجتماع هو غيرهما

احتاج ذلك الاجتماع إلى اجتماع إلى ما لا نهاية له ولا غاية وكل ما لا نهاية له ولا غاية فغير جائز وجود ما في الحال منه وهذه مسألة جارية منذ قديم الزمان ولقد رأيت أهل النظر يتحتمون أمرها ويرفعون من شأنها ووجدتها في عدة كتب بألفاظ مختلفة فلم أجدها أكمل وأتم من قول أبي القاسم الكمي في كتاب أوائل الأدلة فأنبت بها على وجهها وقد ثبت حدث العالم كما ترى فيجب أن يُنظر أحدث جملة واحدة وضربة واحدة أم شيئاً بعد شيء لأن ذلك كله مجوز في العقل فإن أوجد كما هو فابتدأه حدوثه وإن أوجد منه شيء بعد شيء فابتدأه ما أوجد منه وليس ذلك إلى العقل فيُعتمد ولكن سبيله السمع والخبر والناس مختلفون فيه القدماء ومن بعدهم من أهل الكتاب والمسلمون وأنا ذاكر من ذلك ما روي ومُرجح ما وافق الحق إن شاء الله عز وجل،

القول في ابتداء الخلق قرأت في كتاب منسوب إلى رجل من القدماء يقال له افلوطرخس^١ ذكر فيه اختلاف

^١ Ms. افلوطرخس.

مقالات الفلاسفة ووسمه بكتاب ما يرضاه الفلاسفة من الآراء.
الطبيعية حُكي عن تاليس الملقى^١ أنه كان يرى مبدأ
الموجودات الماء منه بدأ وإليه ينحلّ وإنما دعاه الى توهم
هذا الرأي أنه وجد جميع الحيوان من الجوهر الرطب
[٢٥ 26 v°] الذى هو المني فأوجب أن يكون مبدأ جميع الاشياء من
الرطوبة ومتى ما عدمت الرطوبة جّت وبطلت وحُكي
أن فيثاغورس من أهل شاميا وهو أول ما سقى الفلسفة بهذا
الاسم وتاليس أول من ابتدأ الفلسفة أنه كان يرى المبادئ
هى الأعداد المتعادللات وكان يسميها تأليفات وهندسيات
ويسمى من جملة ذلك اسطقسات ويقول الواحدة والثانية
لا حدّ لهما فى المبادئ ويرى أن أحد هذه المبادئ هى العلة
الفاعلة الخاصة^٢ وهى الله عزّ وجلّ والثانى العقل والثالث
العنصر وهو الجوهر القابل للانتقال وعنه كان العالم المدرك
بحسّ البصر وأنّ طبيعة العدد تنتهى^٣ الى العشرة واذا بلغها

^١ Ms. الملقى.

^٢ Indication marginale : فى الاصل الحاصبه.

^٣ Ms. ينتهى.

رجع الى الواحد وأن العشرة بالقوة في الأربعة وذلك اذا
اجتمعت الأعداد من الواحد الى الاربعة استكملت عدد العشرة
وقد ذكر ابن رزام هذا الفصل في كتاب النقض على
الباطنية قال افلوطرخس وكذلك كان الفيثاغوريون^١ يقولون
في الاربعة قسمًا عظيمًا ويأتون في ذلك بشهادة الشعر إذ يقولون
لا وحق الرباعية التي تدبر أنفسنا التي هي أصل لكل طبيعة
التي تسيل دائمًا كذلك النفس التي فينا مركبة من أربعة
اشياء وهي العقل والعلم والرأى والحواس ومنها تكون كل
صناعة وكل مهنة وبها كنّا نحن أنفسنا فالعقل هو الواحدة
وذلك أن العقل إنما يجرى وحده وأما الثانية التي ليست بمجمودة
فالعلم وذلك ان كل برهان وكل اقتناع فنه وأما الثالثة فالرأى
لأن الرأى لجماعة والرابعة الحواس وحكى عن رافليطس أنه
كان يرى مبدأ كل شيء النار واليها انتهأوها وإذا انطفأت النار
يشكل به العالم وأول ذلك أن الغليظ منه إذا تكاثف واجتمع
بعضه الى بعض صار أرضًا واذا تحللت الارض وتفرقت أجزاؤها
بالنار صارت ماءً والنار يحلل الأجسام ويشيرها وحكى عن

^١ الفوياعوريون Ms.

انغمس أنه كان يرى الهواء أول الموجودات منه كان الكل وإليه ينحل الموجودات مثل النفس التي فينا وإن الهواء هو الذى يحفظ فينا الروح والهواء يسكن العالم كله والروح والهواء يقالان جميعاً لأن على معنى واحد قولاً متواطئاً وحكى عن فيثاغورس^١ أنه كان يرى أن مبداء الموجودات هو المتشابه الأجزاء وأن الكائنات يكون بالغذاء الذى تغذى به ومن هذه الكائنات يكون معنى المتشابه الأجزاء. وعنده أن الاشياء^٢ يدرك بالعقل لا بالحوس وهى أجزاء الغذاء وانما سميت متشابه الأجزاء من أجل أن هذه الأعضاء المكونة من الغذاء متشابه بعضها يشبه بعضاً فسميت متشابهة الأجزاء وجعلها مبادئ الموجودات وصير المتشابه الأجزاء عنصراً وحكى عن ارسلاوس أنه يرى مبدأ العالم ما لانهاية له وقد يعترض فيه التكاثف والتخلخل فنه ما يصير ماءً ومنه يصير ناراً وحكى عن انقورس أنه كان يرى الموجودات أجساماً مدركة عقولاً لا خلافاً فيها ولاكون سرمدية غير فاسدة لا يحتمل التكرار والتهشم

^١ Ms. انفساغورس.

^٢ Ms. الاشياء.

ولا يعترض في أجزائها خلاف ولا استحالة وهي مدركة بالعقل
لا بالحواس وهي لا يتجزأ وليس معنى قوله لا يتجزأ أنها في غاية
الصغر لكن لا تقبل الانفعال والاستحالة وحكى عن
اثناقليس أنه [٢٧ ٢٠] لا يرى الاسطقسات الأربع التي هي الماء
والنار والهواء والأرض وأن المبدأ مبدآن^١ وهما المحبة والغلبة
واحدتهما يفعل الإيجاد والآخر يفعل التفرقة وحكى عن
سقراط بن سقريش وافلاطون بن أرسطو الإلهي أنهما يريان
المبادئ ثلاثة^٢ الله والعنصر والصورة زعم المفسرون أن معنى
قولهم الله هو العقل العالم ومعنى العنصر هو الموضوع الأول
للكون والفساد ومعنى الصورة جوهر لا جسم في التخييلات
وحكى عن ارسطاطاليس بن توماجس صاحب المنطق
أنه يرى المبادئ الصورة والعنصر والعدم والاسطقسات الأربع
وجسم خامس هو الأمر غير المستحيل وحكى عن دنوهره اوس
أنه يرى المبادئ هي الله تعالى وهي العلة الفاعلة
والعنصر المنفعل والاسطقسات الأربع فهذا جملة ما حكاها

^١ Ms. مبدیان

^٢ Ms. ثلاثة

افلوطرخس^١ من أقاويل الفلاسفة في المبادئ وزعم ايوب
 الرهاوى في كتاب التفسير أن المبادئ هي العناصر المفردة يعنى
 الحر والبرد والبلّة واليبس فكوّنت النار من تركيب الحرّ مع
 اليبس وكوّن الهواء من تركيب البرد مع البلّة وكوّن الماء من
 تركيب البرد مع البلّة وكوّنت الأرض من تركيب البرد مع اليبس
 فصارت هذه العناصر المركبة ثم كوّن من تركيب هذه العناصر
 المركبة الحيوان والنبات^٢،

ذكر ما حكى اهل الاسلام عنهم ، حكى زُرْقَان في كتاب
 المقالات أن ارسطاطاليس قال بهيولى قديم وقوة معه لم يزل
 وجوهر قابل للأعراض وأن الهيولى حرّك القوة فحدث البرد
 ثم حرّكها فحدث الحرّ ثم قبلهما الجوهر قال وشبهه إحداث^٣
 الهيولى الحركة بإحداث الانسان الفعل بعد أن كان غير فاعل
 له والفعل عَرَض وهو غير الانسان فكذلك الهيولى أحدث
 اعراضاً هي غيره ولا يقال كيف أحدثها كما لا يقال كيف حدثت
 هذه الحركة من الانسان وحكى [عن] جالينوس أنه قال

^١ Ms. افلوطرخس.

^٢ Ms. بإحداث.

بأربع طبائع لم ينفك العالم منها قال وقال سائر الفلاسفة
بأربع طبائع وخامس معها خلافا لولا هو لما كان للطبائع اتلاف
على تضادها قال وقال هرمس^١ بمثل مقالة هؤلاء فثبت
العالم ساكنا ثم تحرك والحركة معنى وهو زوال وانتقال والسكون
ليس بفعل قال وقال بلعم بن باعوراء العالم قديم وله مدبر
يدبره وهو خلافه من جميع المعاني واثبت الحركات فقال ان
الحركة الأولى هي الثانية معاودة لأن من قوله أن الحركة مع
اصل العالم والعالم قديم عنده قال وقال أصحاب الاضطراب
بمثل مقالة بلعم إلا أنهم زعموا أن العالم لم يزل متحركا بحركات
لا نهاية لها وأنكروا أن يكون الحركة لها أول وآخر لانها ليست
بمحدثة قال وقال أصحاب الجنة أن العالم لم يزل مصورا قديما
جنة مصمتة فانقلعت الجنة وكان الخلق كامتا فيها فظهر على
نحو ما يظهر في النطفة والبيضة والنواة قال وقال أصحاب
الجوهرة أن العالم جوهرة قديمة وأحدية الذات وانما اختلفت
على قدر التقاء^٢ الجوهرة وحركاتها فإذا كانا جزءين كانا حرا

^١ .هرمس Ms.

^٢ .التقاء Ms.

وإذا كان ثلاثة أجزاء، صار برّداً وإذا كانت أربعة صارت رطوبة
 وزعم أنّ حركة قبل حركة إلى ما نهاية وقد جمع الناشى مذاهب
 هؤلاء، كلّهم بلفظة واحدة فقال هم أربع طبقات فطبقة
 قالت [٢٧ ٢٧] بَدَم الطينة وَحَدَّث الصبغة وطبقة قالت يحدث
 الطينة والصبغة وطبقة شكّت فلم تدرِ أقديمة هي أم حديثة
 لتكافئ الأدلة عندها وقد قال جالينوس وما على أن لم أدرِ
 أقديمة هي أم حديثة وما حاجتى الى ذلك فى صناعة للطبّ ،
 ذكر مقالات الثنوية والحرائية أصل اعتقاد هؤلاء، فى
 الجملة أنّ المبدأ شيان اثنان نور وظلمة وأنّ النور كان فى
 أعلى العلو وأنّ الظلمة كانت أسفل السفل نوراً خالصاً وظلمة
 خالصة غير مماسين على مثال الظلّ والشمس فامتزجا فكان
 من امتزاجها هذا العالم بما فيه هذا الذى يجمع أصل عقائدهم
 ثم اختلفوا بعد ذلك فزعم ابن ديسان ان النور خالق الخير
 والظلمة خالقة الشرّ بعد قوله بأنّ النور حى حسّاس والظلمة
 موات فكيف يصحّ الفعل من الموات ولما رأى من فنون ما
 لحق المانوية والديسانية من التناقض والفساد أحدث
 مذهبا زعم أنّ الكونين النورى والظلامى قديمان ومعهما شئ

قديم ثالث لم يزل خلافها وخارجاً عن خارجها وهو الذى حمل
الكونين على المشابكة والامتزاج ولولا ذلك المعدل بينهما لما
كان من جوهرهما إلا التباين والتنافر وزعم كنان أن أصل
القديم ثلاثة أشياء الارض والماء والنار غير أن المدبر لها اثنان
خير وشر، وأما الحرائية فختلف عندهم فى الحكاية زعم احمد
ابن الطيب فى رسالة له يذكر فيها مذاهبهم أن القوم مجمعون
على أن للعالم علة لم يزل ويقولون المدبرات سبع واثنا عشر ويقولون
فى الهوى والعدم والصورة والزمان والمكان والحركة والقوة
بقول ارسطاطاليس فى كتاب سمع الكيان وزعم زرقان أنهم
يقولون مثل قول المانية وقال بعضهم أن مذهب الحرائية ناموس
مذهب الفلاسفة وما لم يكن يجسر أحد أن يظهر خلافهم ، وأما
المجوس فأصناف كثيرة ولهم هوس عظيم وترهات متجاوزة
الحد والمقدار لا يكاد يوقف عليها فبعضهم يقول بقول الشنوية
وبعضهم على مذهب الحرائية والخرمية جنس منهم يتستر
بالاسلام ويقولون مبدأ العالم نور وأنه نسخ بعضه فاستحال ظلمة
وأما اهل الصين فعالمهم الشنوية إلى كثير ممن يليهم من الترك
وفيه المعلقة الذين يقولون بقدوم الأعيان وأن العالم لا صانع

له ولا مدبر والهنود أصناف كثيرة وتجمعهم البراهمة والسمنية
 والمعطلة الأخرى يقولون بالتوحيد غير أنهم يُبطلون الرسالة
 ومنهم المهادرزية يزعمون أن المبدأ ثلاثة اخوة أحدهم مهادرز
 فاحتال اخواه في المكر به فعمثت به دابته فسقط ميتاً فسلخوا
 جلده وبسطاه على وجه العالم فصار من جلده هذه الارض
 ومن عظامه الجبال ومن دماغه الأودية والأنهار ومن شعره
 الأشجار والنبات هذا ما بلغنا من مذاهب سُكَّان الأرض
 والقدماء في هذا الباب وقد أشرنا إلى فساد مذهبهم ومذهب
 مَنْ يقول بقدَم العالم أو شيء مع الله تعالى بما فيه كفاية وغنية
 وهذه الحكايات كلها ان لم يكن شيء منها زُمرًا أو الغاذاً أو
 تمثيلاً أو روايةً عن كتاب من كتب الله عز وجل أو رسول
 من رُسل الله أو بوفاق ما جاء منهم أو بشهادة العقول قاطبةً
 فردودة غير مقبولة ومحمولة على تمويه واضعها وتزوير مبتدعها
 وليس في كثرة الترداد والتكرار كثير فائدة ومتى مرَّت نفسك
 على تحفظ مسألة إحداث العالم استغنيت عن كثرة الخوض في
 الفروع التي بُنيت على أصل القدم [٢٨ ٢٨] لأنه إذا وهى
 البناء وضعف لم يثبت فروعه ولا قامت أركانه،

ذكر مقالات أهل الكتاب في هذا الباب ، قرأت في كتاب
 موسوم بشرائع اليهود أن جماعة من علمائهم نهوا عن التفحص
 عن هذا الباب والشروع فيه وزعموا أنه لا ينبغي للإنسان أن
 يبحث عما يتعجب منه ويخفى عليه وزعم بعضهم أن الشيء الذي
 خلقه الله تعالى في الابتداء سبعة عشر شيئاً خلقها الله بلا نطق
 ولا حركة ولا فكرة ولا زمان ولا مكان وهي المكان والزمان
 والريح والهواء والنار والماء والارض والظلمة والنور والعرش
 والسموات وروح القدس والجنة وجنهم وصور جميع الخلائق
 والحكمة قال ومخلوقه ذو جهات ست وهو محصور بين
 هذه الجهات التي هي الأمام والخلف والعلو والسفل واليمين
 والشمال وزعم بعضهم أن أول ما خلق الله سبعة وعشرون شيئاً
 فذكر هذه السبعة عشر وأضاف إليها كلام موسى الذي سمعه
 وجميع ما رآه الانبياء والمن والسلوى والغمام والعين التي
 ظهرت لبني اسرائيل والشياطين واللباس الذي ألبس آدم
 وجوآء وكلام الجبار الذي كلم به بلعام هكذا الحكاية
 عنهم والمسطور في أول سفر من التوراة بالعبرانية * برشت مارا
 ايلوهيم اث هشومانم وات هو اورس وهو اورس هو نوو ثوهم

وحوش على هي، تهوم* يقول أول شيء خلقه السماء والأرض
وكانت الأرض جزيرة خاوية مظلمة على الغمر وريح الله يذف
على وجه الأرض كذا فسرّه المفسرون فلا أدري كيف خالفته
الحكاية عنهم ضمن التورية ولعلّ ما ذكره في بعض أسفارهم
لأن التورية مشتملة على عدة كتب من كتب الأنبياء والله اعلم
وأما النصارى فدينهم في هذا دين اليهود لأنهم يقرّون التورية
ويقرّون بما فيها والصابئون محرون في مذهبهم فأكثر الناس
على أنّ دينهم بين دين اليهود والنصارى فإن كان كذلك
فقولهم قولهم وحكى زرقان أنّ الصابئين يقولون بالنور والظلمة
على نحو ما يقوله المانوية والله اعلم،

ذكر قول أهل الاسلام في المبادئ وما جاء من الروايات فيها،
حدثنا الحسن ابن هشام ببليد قال حدثني ابراهيم بن عبد الله
العيسى حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي طبيان عن ابن عباس
رضي الله عنه قال أول ما خلق الله من شيء القلم قال أكتب
فقال اى ربّي وما أكتب قال القدر فجرى القلم بما هو كائن من
ذلك اليوم الى يوم القيامة قال ثمّ خلق النون فدحا الأرض
عليها فارفع بخار الماء ففتق منه السموات فاضطربت النون

فارت الأرض فأثبتت بالجبال وإن الجبال تنفجر على الأرض
 إلى يوم القيامة وحدثنا عبد الرحمن بن أحمد المروزي برو حدثنا
 السراج محمد بن اسحق حدثنا قتيبة بن سعد حدثنا خالد بن
 عبد الله بن عطاء عن أبي الضحّا عن ابن عباس رضي الله عنه
 قال أول شيء خلق الله تبارك وتعالى القلم فقال له اكتب
 ما يكون إلى يوم القيامة ثم خلق نون فكتب عليها الأرض
 يقول الله تعالى نون والقلم وما يسطرون وحدثني محمد بن
 سهل بإسوار حدثنا أبو بكر بن زيّان حدثنا دعه عيسى بن
 حمّاد [٢٨ ٢٩] عن الليث بن سعد عن أبي هانئ عن أبي عبد
 الرحمن البجلي عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلعم أنه
 قال كتب الله تقادير كل شيء قبل أن خلق السموات والأرض
 بخمسين ألف عام وقد اختلفت الروايات عن ابن عباس رضي
 الله عنه فروى عنه أول ما خلق الله القلم وروى عنه سعيد بن
 جبير أول ما خلق الله العرش والكرسي وروى أول ما خلق الله
 النور والظلمة وروينا خلاف ذلك كله عن الحسن أنه قال
 أول ما خلق من شيء العقل وروى عنه أول ما خلق الله

١ Note marginale : كذا في الأصل .

الأرواح وفي رواية إبي الوليد عن إبي عوانه عن إبي بشرٍ عن مجاهد قال بدء الخلق العرش والماء والهواء. وُخلقت الأرض من الماء. وحدثني حاتم بن السندی بتكرير حدثنا أحمد بن منصور الرمادي عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلعم خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم كما وصف لكم وأما حديث حماد بن سلمة عن يعلى بن عطا عن وكيع بن حرس عن عمه إبي رزين العقيلي أنه قال قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن خلق السموات والأرض قال كان في عماء ما تحته هواء ولا فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء فإنه ان صحّ وصحّ تأويل من تأول العماء السحاب والنعام دلّ أن خلق النعام المذكور في الخبر والقرآن كان قبل خلق السموات والأرض وقد روى أن النبي صلعم قال كتب الله كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام^١ ووضع على العرش فإن صحّت الرواية دلّ أن خلق العرش كان قبل سائر الخلق وفي كتاب إبي حذيفة عن حبيب عن الضحاك عن ابن عباس رضي

^١ سبقت رجمتي غضبي : Interpolation dans le ms.

الله عنه أن الله لما أراد أن يخلق الماء خلق من النور ياقوتة
 خضراء ووصف في طولها وعرضها وسماها ما الله به عليم قال
 فلحظها الجبار لحظة فصارت ماءً يترقق لا يثبت في ضحضاح
 ولا غير ضحضاح يرتعد من مخافة الله ثم خلق الريح فوضع الماء
 على متن الريح ثم خلق العرش فوضعه على متن الماء فذلك
 قوله تعالى وكان عرشه على الماء. وروى عبد الرزاق عن معمر
 عن الأعمش عن ابن حُبَيْر قال سألتُ ابن عباس رضى الله
 عنه عن قوله تعالى وكان عرشه على الماء فعلام كان الماء قبل
 أن يخلق شيئاً قال على متن الريح فإن صحت الرواية عن
 الضحاك دلّ أن النون قبل خلق الماء. وأما محمد بن اسحق
 فبأنه يقول في كتابه وهو أول كتاب عُملَ في بدء الخلق
 لقول الله تعالى وهو الذى خلق السموات والأرض في ستة
 أيام وكان عرشه على الماء فكان كما وصف نفسه تبارك وتعالى
 إذ ليس إلا الماء عليه العرش ذو الجلال والإكرام والعزة
 والسلطان فكان أول ما خلق النور والظلمة ميز بينهما فجعل
 الظلمة ليلاً أسودَ مظلماً وجعل النور نهاراً مُضيئاً مبصراً ثم سمك
 السموات السبع من دخان الماء حتى استقللن ثم دحا الأرض

وأرساها بالجبال وقدر فيها الأقوات ثم استوى إلى السماء وهي
دخان ، لا يختلف أحد من المسلمين ومن يدين الله بالكتاب
والرسالة أن ما دون الله تعالى مخلوق مُحدث وإن لم يذكر
خلقه وإحداثه وإنما مرادنا أن نعرف أول ما خلق الله منه إن
كان ذلك ممكناً منه . اختلف الرواة عن وهب بن منبه وغيره
من منى [r° 29 r°] أهل الكتاب فروى عن عبد الله بن سلام أنه
قال خلق الله نوراً وخلق من ذلك النور ظلمةً وخلق من
تلك الظلمة نوراً وخلق من ذلك النور ماءً يخلق من
ذلك الماء الأشياء كلها وعن وهب بن منبه قال وجدت
فيما أنزل الله على موسى بن عمران عليه السلم أن الله لما أراد
خلق الخلق خلق الروح ثم خلق من الروح الهواء ثم خلق
من الهواء النور والظلمة ثم خلق من النور الماء ثم خلق النار
والريح وكان عرشه على الماء . وسمعت بعض الشيعة يزعمون أن
أول ما خلق الله نور محمد وعلي ويروون فيه رواية والله أعلم
بحمها . وقد ذكرت حكماً العرب ومن كان يدين الله
منهم بدين الانبياء في أشعارها وخطبها كيف كان مبدأ الخلق

فمنه قول عدى بن زيد العبادى وكان نصرانياً يقرأ
الكتب

[بسيط]

اسمع حديثاً لكى يوماً تجاوبه عن ظهريب إذا ما سائلُ سألَا
ان كيف أبدى إلهُ الخلق نعمته فينا وعرفنا آياته الأولى
كانت رياحاً وماءً ذا عُرائية وظلمة لم يدع فتقاً ولا خلا
فأمر الظلمة السوداء فانكشفت وعزل الماء عما كان قد شغلا
وبسط الأرض بسطاً ثم قدرها تحت السماء سراً مثل ما فعلا
وجعل الشمس مصيراً لاخفاء به بين النهار وبين الليل قد فضلا
قضى لسة أيام خلانته وكان آخر شيء صور الرجال

وقد حكى الفرس عن علماء دينهم وموبذهم أول ما خلق الله
السموات والأرض ثم النبات ثم الانسان،

ذكر تصويب أرجح المذاهب، أقول ان رأى من رأى تقديم^١
أحد الأركان على غيره هو مُحْتَلّ وإي لأَنهم يختلفون فى الاستحالة
والفساد وكيف يصح على رأى تاليس الماء وهو عنده مستحيل
من الأرض وعلى رأى براقليطس^٢ النار وهى مستحيلة عنده

١ Ms. يقدم.

٢ Ms. براطيطس.

من الهواء، وكذلك سائر الأركان أم كيف يجوز عندهم تولد حيوان أو تركب نبات من غير اجتماع هذه الأخلاط الأربع فيها لأن ما تفرّد بطبع واحد لا يوجد منه غير حركته الطبيعية أو من زعم بابتداء البسائط ثم العناصر المركبة فبأنه يفحش قوله لأن البسائط أعراض لا تقوم بذواتها ولا بُدّ لها من حامل فكيف يصح وجودها بلا حامل وكذلك من زعم النور والظلمة لأنها عرضان لا جسمان والأصح على مذهب هؤلاء ما رأى اتحادقليس من تقدّم الاسطقسات الأربع وفساد هذا ظاهر عند المسلمين بأن الاسطقسات لا تخلو أن تكون أعراضاً فإن كانت أعراضاً فالعرض لا يقوم بنفسه أو يكون أجساماً وحدّ الجسم ما ذكرناه واثّر الحدث مقارن له أو يكون لا أجساماً ولا أعراضاً فهذا غير معقول عند المسلمين إلاّ الباري جلّ جلاله فإنه خلاف خلقه من جميع الوجوه وإذا لم تكن [٢٩ ٢٩] أجساماً ولا أعراضاً عندهم فلا بُدّ أن يكون هو الهيولى الموهوم في مذهبه وهذا شيء لو كان موهوماً لما جاز وقوع الاختلاف فيه إلاّ من معاند كما لا يجوز وقوع الاختلاف في المعقول إلاّ من معاند مع أن الوهم لا يحصر ما لا حدّ له ولا صفة من

لَوْنٌ أَوْ مَقْدَرٌ أَوْ شَيْءٌ مِنَ الْأَعْرَاضِ الْمَحْسُوسَةِ رَجُلَةٌ هَذَا
 الْقَوْلِ فِي هَذَا الْبَابِ مِرَاعَاةُ اثَرِ الْحَدَثِ فِيمَا سِوَى الْبَارِئِ جَلَّ
 جَلَالُهُ فَإِذَا ثَبِتَ ذَلِكَ عُلِمَ أَنَّ مَا كَانَ مُحَدَّثًا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ
 ابْتِدَاءٍ وَإِذَا كَانَ لَا يَقُولُ بِحَدَثِ الْعَالَمِ إِلَّا الْمَوْحِدُونَ لَمْ يَوْجِدْ
 ابْتِدَاءَ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِمْ وَهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي الرِّوَايَةِ عَنْ عِلْمَانِهِمْ
 فِي الظَّاهِرِ وَمُتَّفَقُونَ فِي الْمَعْنَى إِذَا انْعَمُوا النَّظَرَ فَأَمَّا أَهْلُ
 الْكِتَابِ وَمَا حُكِيَ عَنْهُمْ فَحَتَمَلْ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْقَطْعُ بِهِ
 مَا لَمْ يَصَدِّقْهُ كِتَابُنَا أَوْ خَبَرَ نَبِيِّنَا صَلَّعَ لِمَا وَقَعَ فِيهِمْ مِنَ التَّحْرِيفِ
 وَالتَّبْدِيلِ وَلَآئِهِ خِلَافٌ مَا ذَكَرَ فِي أَوَّلِ التَّوْرَةِ فِي ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ
 فَالَّذِي يُوْجِبُهُ الْعَقْلُ أَنْ يَكُونَ مَكَانٌ كُلٌّ مُمْتَكِّنٌ سَابِقٌ لَهُ وَإِنْ
 لَا يَحِلُّ حَرَكَةٌ إِلَّا فِي جِسْمٍ وَلَا يَوْجَدُ إِلَّا فِي زَمَانٍ وَإِنْ لَا يَصِحُّ
 فَعَلَ اخْتِيَارَ وَتَدْبِيرَ إِلَّا مِنْ حَيِّ عَالَمٍ وَإِنْ لَا يَحْدُثُ شَيْءٌ إِلَّا مِنْ
 شَيْءٍ وَإِنَّ الْأَرْكَانَ الْأَرْبَعِ سَابِقَةً لِلْأَجْسَامِ فَمَنْ قَالَ بِقَدَمِ هَذِهِ
 الْمَذْكُورَاتِ دَخَلَ فِي جُمْلَةِ الْمُخَالِفِينَ وَنَقَضَتْ عَلَيْهِ آثَارَ الْحَدَثِ فِيهَا
 وَمَذْهَبِهِ وَمَنْ قَالَ بِحَدَثِهَا فَمَا حَاجَتُهُ إِلَى تَقْدِيمِ مَا قَدَّمَ مِنْهَا
 وَقَدْ أَقْرَبَ بِأَنَّ اللَّهَ أَحْدَثَ الزَّمَانَ مِنْ غَيْرِ زَمَانٍ وَالْمَكَانَ فِي
 غَيْرِ مَكَانٍ وَالْأَرْكَانَ مِنْ غَيْرِ أَرْكَانٍ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُعَمَدَ فِيهِ شَيْءٌ

من كتب الله فليس يجد في كتاب أول ما خلق ما هو فيقضى
على ما خالفه بالرد والإنكار ولابد لكل حادث من غاية ينتهي
إليها كقولنا الساعة من اليوم واليوم من الاسبوع والاسبوع
من الشهر والشهر من السنة والسنة من الزمان والزمان من
الدهر فقد انتهى الى الزمان والزمان غايته وكما نقول فلان من
فلان وفلان من فلان كما ترفع مثلاً نسب رسول الله صلعم الى
آدم ثم يقال وآدم من تراب فالتراب آخره وكذلك سائر
الاشياء الحادثة لابد لها من غاية هذا ما يعاينه ويشاهده
فلذلك وضعنا ما روينا عن أهل الكتاب على وجه الاحتمال
فقد ذهب بعض أهل الاسلام الى أن أول ما أحدث الزمن
العلوى وهو وقت يظهر فيه الفعل ليس السفلى الذى هو من
حركات الفلك ثم المكان الذى هو غير متجزئ ولا متماسك
وهو فضاء وبسيط ذاهب خلاء محيط بالعالم قال وليس الهواء
من الفضاء فى شيء لأن الهواء جسم متجزئ ومنتشر وليس
الخلاء بمتجزئ ولا محسوس ومعنى قوله التجزئ ان الخلاء لا
يدخل العالم منه شيء الا يتخلله بثة والهواء ما بين السماء
والارض ولا يخلو منه شيء والخلاء ما فيه السماء والارض

والهواء. تم الأجسام بأعراضها كذا رأيت في بعض كتبهم
والله اعلم فماذا سأل سائل عن ابتداء الخلق فجوابه أن ما
دون الله مخلوق نعم سؤالك عن العالم العلوي أم العالم السفلي
أم عن الآخرة الموعودة أم عن الدنيا الفانية [f° 30 r°] لأن كل
شيء من هذه الأشياء ابتداء منه ابتداءً ونشوء فإن قيل هل
غير الدنيا والآخرة شيء قيل العرش والكرسي والملائكة
واللوح والقلم وسدرة المنتهى مخلوقة كلها ولا تعدا من
الدنيا ولا من الآخرة وكذلك الجنة والنار والصراط والميزان
والصور والأعراف والرحمة والعذاب مخلوقة عند كثير من
الأمم ثم من بعدهم من أهل الكتاب ولا يُعد من الدنيا
ولا من الآخرة فإن قيل فقد قال الله تعالى فليله الآخرة
والأولى ولم يذكر شيئاً غيرهما قيل ولم يذكر الأشياء
غيرهما مع أكثر أهل التفسير يقولون معناه لله الحكم في
الآخرة والأولى وقد قال رسول الله صلعم ما بعد الموت
مستتب ولا بعد الدنيا إلا الجنة والنار لأنه لا شيء غيرهما
. وإنما يصح هذا إذا عرفت الدنيا والآخرة ما هما على أنه لا عتب

على من عدّ ما ذكرناه من أمر الآخرة ولا مضايقة فيه
 بعد أن اعتقدها كما جاءت به كتب الله وينبغي
 أن يعلم أنّ كلّما دون الدنيا روحانيّ حيوانيّ خلق للبقاء،
 والخلود على الأبد لا يجوز عليه الانحلال والذئور بقول
الله تعالى وإنّ الدار الآخرة لهُ الحيوان لو كانوا يعلمون،
 ذكر أول ما خلق في العالم العلويّ من الحيوانات يدلّ
 على أنّ أول ما أوجده الله تعالى القلم واللوح على رواية
 أبي ظبيان عن ابن عباس ثمّ العرش والكرسى على رواية
 مجاهد وقد قال قائلٌ أنّ أول ما خلق الرّوح والعقل
 على رواية الحسن لأنّ في رواية ابن عباس انه قال
 للقلم اكتب فقال اى ربّ وما اكتب والأمر في
 الحقيقة والجواب لا يصحّ ألا من حىّ عاقل قال ثمّ الحب
 ومنها النّام والنور والملائكة ثمّ الرحمة والعذاب يعنى الجنّة
 والنار والصراط والميزان وغير ذلك ممّا ذكر وأول ما
 خلق في العالم السفلىّ من الحيوانات الماء والهواء كما
 قال مجاهد وخلقت الأرض من الماء فهذه أركان العالم
 ثمّ النور والظلمة ومن الناس من يفرق بين النور العلويّ

والنور السفلي بأن هذا جسم لطيف وذلك روح خالص مع
 اختلافهم في الروح أجسم هو أم غير جسم وسيمر بك في
 بابه مشروحاً مفسراً ان شاء الله عز وجل فاذا سأل سائل
 مم خلق الخلق قيل ان الخلق اجزاء مختلفة فمن أى جزء
 من اجزاء الخلق سؤالك ولن يجاب حتى يشير الى ما
 أردنا فلان سأل عن الأرض قيل من زبد الماء كما جاء
 في الحديث والخبر وان سأل سائل عن السماء قيل من
 دخان الماء وان سأل عن الكواكب قيل من ضوء النهار
 وان سأل عن الأركان المركبة قيل من البسائط المفردات
 وان سأل عن البسائط قيل يمكن أن يكون خلقت مما
 خلق قبلها ويمكن ان يكون خلقت لا من شئ، لانا نرى الله
 يخلق الشئ من الشئ ويخلق من لا شئ وقد دللنا على أن
 لا شئ غير الله تعالى إلا مخلوق وان الله ابتدعه بديناً
 لا من شئ، كما شاء ما لا حاجة الى إعادة القول فيه
بقول الله تعالى بديع السموات والأرض وقال الله خلق كل
دابة من ماء وقال الله خلقكم من نفس واحدة وقال
خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من ماذج

من نار مع سائر ما وصفت أنه خلقه من خلقٍ خلقه قبله
 [٣٠ ٧٥] وكذلك يفعل الشيء بسبب ويفعله بلا سبب موجب
 قال الله تعالى وانزل من السماء ماءً فاخرج به من
 الثمرات رزقاً لكم فأخبر عزّ رجل أنه جعل سبب
 اخراج الثمر والنبات إنزال الماء وكذلك جعل سبب
 كون الانسان النطفة وسائر ما يوجد ويحدثه وقد
 أوجد أمهات هذه الاسباب بغير سبب موجب لها بل بقدرته
 وحكمته وان سأل سائل فيم خلق قيل فيم سؤال عن
 المكان ولا مكان ألا وهو مفتقر الى مكان وقد سبقت
 الدلالة على فساد الحلول بما ليست له نهاية فلو قال
 القائل أن العالم لا في مكان لكان قولاً لا أنه ليس بأعجب
 من إقراره بإيجاد الأعيان لا من غير سابقة وقد قيل
 أنه في خلاء وهو مكان له وزعم آخرون أن العالم بعضه
 مكان لبعض وفي كتاب وهب بن منبه ان السموات والجنة
 والنار والدنيا والآخرة والريح والنار كآها في جوف الكرسي
 فإن صحت الرواية كان الكرسي مكاناً لهذه الأشياء والله
 اعلم وأحكم،

وان سأل كيف خلق قيل كيف سؤال يقتضى التشبيه فى
الجواب وليس نعلم العالم مثلاً غيره فنشبهه به ولكننا مشاهدين
له عند احداثه ولا فعل الله تعالى بحركة ولا معالجة والكيفية
منتفية عن فعله كما هى منتفية عنه سبحانه فإن اردت كيف
أوجده من عدم فكيف تراه اجساماً وجواهر حاملة للأعراض
قال له كن فكان كما أخبرنا عنه وإن اردت شكلاً وهيئة
لفعله فهذه من حالات الأعراض التى تتعاقب على المخلوقين
فإن سأل سائل متى خلق قيل متى سؤال عن المدة والوقت
من الزمان والمدة عندنا من حركات الفلك ومدى ما بين
الأفعال وقد قامت الدلالة على حدث الفلك ولا يطلق
المسلمون القول بأن الله تعالى لم يزل يفعل لأن ذلك يوجب
ازلية الخلق ويؤدى الى قول من يرى المعلول مع العلة حتى
يكون بين فعل سابق له الى ان فعل العالم مدة وقد زعم بعض
الناس أنه أحدث زماناً أوجد فيه العالم كمن قال إنه أحدث
مكاناً أوجد فيه العالم فقال قوم الزمان ليس بشئ وإن سأل
سائل لِمَ خلق قيل لِمَ سؤال عن العلة الموجبة للفعل وفاعل
ذلك مضطر غير مختار والمضطر مقهور مغلوب ولا يجوز ذلك فى

صفة القديم فإن اردت بالعلّة الفرض المقصود في الخلق فهو
 ما ذكرناه في أول هذا الفصل انه خلق الخلق لرأفته
 ورحمته وجوده وقدرته اينفعهم وليأكلوا من رزقه ولينقلبوا
 في نعمته ويستحقّوا شرف الثواب بطاعته ،
